لكتاكيت أجنحة

قصة : عبد العال الحمامصى

دخلت غرفة النـــوم .. وخـلعت ملابس البيت .. ثم ارتدت فســتان المناسبات الوحيد لديها .. ووقفت أمام المرآة تمشط شعرها استعدادا لاستقبال خطيب أختها وأسرته .. والضـجة فى الصالة تنفذ اليها صـــاخبة .. تموج بالفرحة .. نساء وعذراى وأطفال .. وزغاريد تزعق بين كل لحظة والأخرى . كلما قدمت مدعوة جديدة .. والفتـاة النحيفـــة ما زالت ترقص .. ويتأود جسدها كالثعبان على نقرات الطبـلة فى يد الجارة العجوز .. وهى تغنى بصوت مشروخ النبرات .. لاختها فى الصالة .

تمنت سعاد لو أن تظهر بفســـتان جديد فى هذه المناسبة .. الفســـتان القديم لم يفقد زهوته .. ولكنه ضاق عند خصرها .. والجنيهات التى وفرتها لشراء فستان جديد .. اعطتها لمرشاد ليبتاع بها مراجع جديدة .. ظهرت فى الهندسة الكيمائية .

ومن خلال الدوامة فى الصالة تناهت اليها زغرودة قوية .. اهتـزت لهـــا جدران البيت .. ثم جاوبتها زغاريد المدعوات .. هادرة ..

عرفت سعاد صاحبة الزغرودة .. وابتسمت .. خالتها حميدة .. دائما تدخل بعاصـــفتها فى الأحزان .. وفى الأفراح .. !

وتأكد اعتقادها عندما هدأت زوبعة الزغاريد التى أثارتهـــا .. وتدافعت عبارات التهنئة من فمها لتهاد منفعلة باهتياج الفرحة ..

* « مبـروك يا نهاد .. ألف بركة يا ســـت الكل .. ربنـــا يتمم بخير يا ضنايا .. وعقبال كل البكارى .. » .

واندفعت تسحب الخطيبة من بين صويجاتها .. وتحتويها الى صدرها وهى تغمرها بقبلات منهمرة .. ثم تطلق من جديد زغرودتها الصاخبة .. فترد عليها أفواه الجارات بالزغاريد متجاوبة ..

وقبل أن تجلس بجوار جاره نحت طفلها لتفسح لها مكانا بجانبها .. انطلقت نظراتها تتجول فى ارجاء الشقة باحثة عن سعاد ..

* « يا أختى .. أمال فين سعاد يا بنات .. فين راجل البيت ؟؟ » .

وابتسمت سعاد داخل غرفتها .. ساخرة وقد شعرت بالكلمة تخدش قلبها .. وتتلاقى مع أحاسيس غريبة ظلت منذ الصباح تقاومها .. ربما للمرة الأولى فى حياتها تشعر بالمرارة لوقع الكلمة .. رجل البيت .. همست لنفسها بالعبارة .. وانسابت الكآبة فى روحها .. انسابت تيارا هادئا من الأسى جرف كيانها ! ..

رجل البيت .. عادت ترد الكلمة .. وهى تجفف قطرات من الدموع طفرت برغمها . ثم انبثقت من أعماقها خواطر تلومها .. وتستنكر هذا الاحساس منها بالأسى والاكتئاب فى ليلة خطوبة أختها ..

وعاد نداء خالتها حميدة من الصالة يستعجلها .. وهى ما زالت أمام المرآة تعيد تصفيف شعرها .. لم ترق لها التسريحة الأولى .. تبدو فيها كفتيات الملاهى !

وضعت المشط وخرجت الى الصالة .. وفوق ثغرها ابتسامة عريضة .. وانفجرت الزغاريد فى وجهها . وهى ترحب بالمدعوات .. وتقبل مجموعة من زميلات نهاد فى معهد المعلمات جئن أثناء وجودها فى الغرفة .. وتتمنى لهن العاقبة .. فتشرق الأحلام فى عيونهن والجارات من حولها يتبادلن التمنيات لبناتهن والشبان ..

كل واحدة تتمنى العاقبة للأخرى .. هى الوحيدة التى لم يقل لها أحد العاقبة لك .. ولا واحدة قالت لها الكلمة المعتادة .. ولا واحدة !

وعادت الكآبة توخز قلبها ! هى .. شىء فرغ من أمره . عرف مصيره .. لا مستقبل له . لا عاقبة عنده .. والتقت بخالتها حميدة وهى خارجة من المطبخ .. وفتحت زراعيها تحتضن المرأة البدينة الطيبة .. بقبلاتها . وتمنياتها ..

* « مبروك لنهاد يا ضنايا .. وعقبالك يا بنتى . ربنا يعوض صبرك .. ويوعدك بابن الحلال » .. ؟ ابن الحلال .. خالتها حميدة . هى الوحيدة هنا التى تذكرت انها انثى .. من حقها أن تقال لها الكلمة .. !

ابن الحلال ..

شعرت بالكلمة توجع قلبها .. نفذت داخل أغواره .. تثير لواعجه الكامنة ! ..

وتخلصت من أحضان خالتها ترد لها التمنيات ..

× « عقبال الشهادة الكبيرة لمحروس يا خالة .. وحجتك انت وعمى رضوان .. » ونادت لأختها الوسطى فى المطبخ تستعجل الشربات ..

ـ « ياما نفسى يا سعاد يا بننى ..

«عيش لغاية ما أشـــوفه جنبـك فى الكوشة ! .. » .

وابتسمت سعاد ..

× « هو .. مين دا .. يا خالتى ؟ »

نفذت نظرات المرآة داخل عينيها .. وهى تبتسم بدهاء . حنون !

× « يا بت .. اطلعى من دول .. مش عارفاه مين .. ابن الحلال يا روح خالتـــك .. طب والنبى .. وغلاوة محروس بســـلامته .. لوراه لحد ما اجمعه واجيبه لغاية عندك .. عريس عليه القيمـة .. يســـتاهل عقلك . وكمالك . ويعوض صبرك !! » .

لم تستطع هذه المرة أن تمنع المرارة من أن تشوب ابتسامتهـــا وتطل من عينيها .

× « بعد ما شاب .. يا خالتى .. ما أنا قلت لك من زمان .. خـــلاص يا خاله .. بقيت راجل العيـــلة .. والحكاية دى مبقتشى أفكر فيها .. مش فاكره والا ايه ؟ .. » .

رجل العائله ! ..

خالتها حميدة .. هى التى اطلقت عليها تلك التسمية .. ليلة زفاف وداد وهنأتها لزواج أختها . وتمنت لها ابن الحلال .. وأجابتها سعاد بأنها تزوجت خلاص .. تزوجت أختهـــا وأصبحت رجل العائلة .. ومن وقتها وخالتهـــا حميدة لا تناديها الا وهى تداعبها بتلك العبارة .. رجل العائلة .. بدون أن تعرف أنها تدمى بها الجرح الكامن فى أعماق أنوثتها .. الجـرح المتقيح فى الداخل لا يريد أن يلتئم أبدا .. وتحرص على أن تدارى عن العيون نزيفه ! ..

تركت خالتها عنـــدما جاءت وداد بالشربات .. وأخذت تساعد أختها فى توزيع الأكـــواب على المدعـــوات . والأطفال .. ونظرت الى ساعة يدها.. الثامنة والنصف .. الخطيب موعدة التاسعة ..

وحانت منها التفـــاتة للعروس فى ثوبها الأنيق .. فاتنة .. وحلـوة . والســـعادة تزغرد فى عينيها .. ومن حولها البنات .. زهرات شـذية .. يحطن بها . ويداعبنها واحدة تقرص خـدها . وأخـــرى تهمس فى أذنها . والأحلام فى كل عين . والابتسامة فوق كل ثغر .. كل واحدة فى قلبها الاحساس بأنها على موعد مع الغد !!

كانت خـــواطرها تتابع « زيطة » الفتيات .. عندما اصطدمت بها احدى المدعوات عفوا .. وامتدت يد الرضيع فوق صدر السيدة « ينكش » شعرها. واقتربت من المرآة المقابلة لتعيـــد توضيبه .. والتقت نظراتها بالشعيرات الفضية بين خصلاتة .. وغـــامت أساريرها ..

لم تكن تلك الشعيرات مفاجأة لها .. رأتهن من قبل .. وأحصتهن بالواحدة. فما الذى جعلها ترتجف هـكذا .. فى ليلة أختها .. « ماذا جرى لك يا سعاد .. أية أحاسيس غريبة ومجنونة تراودك اليوم يافتاة .. أفيقى لنفسك .. لم تعودى مراهقة !! »

نظمت شعرها واســتدارت ترحب بجارة وافدة من بناتها .. والتقت عينها بعين أختها .. كانت العروس تتابعها.. وفطنت هى للاكتئاب الذى يشـــوب نظرة نهاد .. فى ليلة خطوبتها .. !

وابتســـمت لها .. « معـــذرة

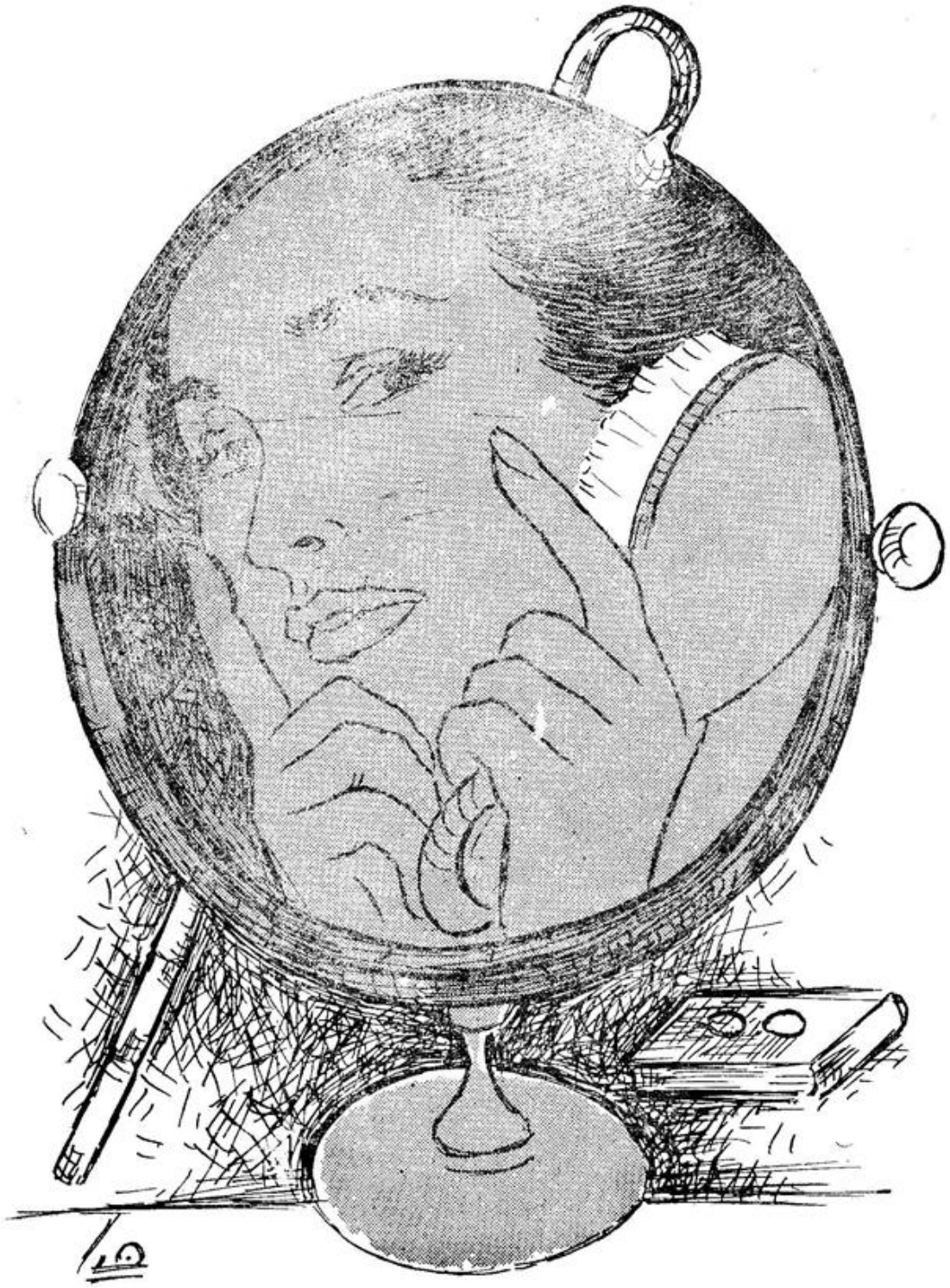

يا صغيرتى .. لا شيء . .لا تكتئبى هكذا ياعصفورة فى ليلة أحلامك .. كونى سعيدة ياحلوة .. فى منتهى السعادة أنا .. سيكون لك بيت يحتويك .. ورجل يحميك .. والحياة أمامك .. فى منتهى السعادة أنا ... فلهذا اليوم كنت أعيش .. سعيدة .. لأننى ادخرت عمرى حتى لا تدوس أقدام الزمن حيواتكم .. ونجحت .. وداد .. تزوجت .. ولها بيتها . وأنت فى الطريق ورشاد بقى له عام .. ويتخرج من كلية الهندسة .. ويواجة الحياة رجلا .. يركع المستقبل تحت قدمية ..

وأنا .. أنا سعيدة » . وكادت الدموع تنبثق من عينها . ولكنها قاومتها .

وأفاقت من خواطرها .. ومفاجأة أختها على الزغاريد تنطلق عاصفة .. واستدارت فوجدت الخطيب خلفها وأسرتة .. الام .. وبنتها الطالبة .. وماجد الصغير .. آخر العنقود .. ونهضت صابحة صديقة نهاد المخلصة لتعطى مكانها للعريس بجوار عروسه.. وانطلقت الزغاريد من جديد .. ثم اشتد حماسها ودويها عندما دخل رشاد .. « الباشمهندس » .. رددتها أفواه الأمهات .. ثم انهالت عليه التمنيات .. بالشهادة .. والعروس.. وترقرقت الأحلام نشوانة فى عيون البنات . وهن يخالسنه نظرات معجبة بوسامته .. فطنت اليها سعاد !!

« كل واحدة لها أحلامها الا انت يا سعاد .. « الباشمهندس » .. كل عذراء هنا تتمناه .. أعطيته دم قلبك لتقدمينه فى النهاية لواحدة أخرى .. تأخذه منك » . انها تعرف ذلك مقدما.. تعرف أنها مجرد صانعة أفراح .. وليست لها أفراح تخصها ..

وقدم العريس « الشبكة » والبس الخطيبة « دبلتها » .. وانطلقت الزغاريد !

ونظرت الى الدبلة فى أصبع أختها .. ذات يوم.. كانت فى اصبعها هى الأخرى دبلة .. كان لها خطيب .. وارتقت نظرتها الى عين نهاد .. أختها سعيدة بدبلتها فى أفراح عينيها الاحساس بأنها دخلت الدنيا ! .. « كونى سعيدة يا عصفورة « دبلتك كأنما فى أصبعى أنا » .. !!

ومن خلال الضجة والزحام والزغاريد . تدافعت الذكريات الى مخيلتها ..

كانت صغيرة .. لها أحلام مراهقة تحلق فى أجواء فسيحة .. طالبة فى مدرسة السنية .. فى كل مكان تحاصرها نظرات الاعجاب .. وتنهدات الشبان.. فى الاتوبيس .. فى الشوارع . فى الحارة .. فى كل مكان تلاحقها النظرات المفتونة بجمالها ورشاقتها .. ورغم أن عبارات الغزل كانت تدغدغ بالفرحة روحها .. ظلت تدخر عواطفها .. وتفرقها فى المذاكرة .. حتى تتخرج من الجامعة . وتلتقى برجل أحلامها .. وفى يدها شهادة تحفظ عليها كرامتها . وتساعد بها زوجها فى معركة الحياة .. ليكون بيتهما سعيدا .. وتجنبه الحياة المكدودة التى يعيشها والدها فى كفاحه المرير من أجل ان يقيم أود عائلته . ويدفع لها مصاريف المدرسة ..! أغلقت

قلبها دون أى نداء .. لم تعط شابا حتى ابتسامة ارتياح لعباراته ..

وفى شارعها كانت طلبة الثانوى يدعونها بالمتكبرة . والمغرورة .. والذين يطالعون الروايات منهم .. أسموها . « المعقدة » .. وكانت تبتسم ساخرة فى سرها ! ..

وابتسمت الدنيا فى وجهها .. عندما نالت شهادة التوجيهى بمجموع يتيح لها المجانية فى الجامعة .. ولكنها كانت قد اتخذت قرارها .. سوف تشتغل بشهادتها وتنتسب لكلية الآداب فى نفس الوقت .. لتوفر على والدها الطيب نفقاتها الخاصة .. ومن جهة اخرى لترد له بعض الدين !! ..

وحاول الرجل الطيب أن يقف فى وجه قرارها .. وعدها بأن يحول قطرات دمه الى نقود تفى باحتياجاتها .. ولكنها كانت قد ركبت رأسها .. فرضخ الرجل مرغما لعنادها .. وتوظفت بقسم الخامات فى « شركة البلاستيك الأهلية » .. وخطبها أحد المهندسين الجدد .. اجتذبته أخلاقها واستقامتها كما قال لها .. ومانعت فى البداية .. ثم قبلت عندما وعد بأن ينتظرها الى أن تستكمل تعليمها العالى.. ووضع الدبلة فى أصبعها ! ..

وأفاقت من خواطرها على صوت أم الخطيب .. تسحبها من يدها .. ثم تطوف معها بالمدعوين تستعرض «الشبكة» التى انتقاها ذوق العريس!..

كانت لها أيضا هى « شبكة » .. أعادتها لصاحبها .. مات والدها بالذبحة الصدرية .. مات الرجل الطيب المريض .. الذى ينوء كاهله بمطالب أسرته .. ورغم مرضه وشيخوخته .. كان يعود من عمله النهارى فى مصلحة المساحة ليشتغل قاطع تذاكر فى فترة المساء « بسينما الشرابية » . ليجلب أجرا اضافيا يغطى به نفقات البيت .. لم تره يشكو أبدا .. كان يحتمل تعاسة واقعه بلا مرارة .. وخرج الرجل الطيب من الدنيا بدون مسرات لها فيها .. ثم لحقت به زوجته بعد ذلك بشهور ! .. وجدت سعاد نفسها رجل العائلة .. كان هذا نصيبها .. وسارت بالسفينة بين الأعاصير وحدها !

وأعادت الشبكة لصاحبها .. مع الدبلة .. !

تمنت وقتها بلهفة جائعة .. أن يكون الرجل شهما .. ليقول لها « كونى لى ولاخوتك فى نفس الوقت وليكن مرتبك من أجلهما .. لم تكن ستقبل تضحيته مهما حاول .. ولكنها تمنت أن يقول لها ذلك فحسب .. لتشعر أن الدنيا بخير .. وأن فيها من يبدى استعداده للتضحية .. كانت سترفض عرضه قطعا .. فقط تمنت الكلمات .. لتعيش عليها .. لتواجه المصير بها .. ولكنه لم يقلها ! .. أبدى أسفه .. قال انه كان يتمناها زوجة.. ولكنه يريد سيدة بيت تتفرغ له ولأولادها .. وظروفها هى ترغمها على العمل من أجل اخوتها !!

نسى الرجل أنه اتفق معها من قبل على أن تظل فى العمل بعد الزواج

لتضيف مرتبها الى مرتبه ليمكنهما توفير حياة طيبة لأولادهما .. نسى ذلك .. انها لا تحقد عليه .. لا تلومه .. ولكنها كانت تتمنى الكلمات .. !!

وماتت أحلامها فى الجامعة .. انقطعت عن مواصلة الانتساب .. لم يعد لديها وقت للمذاكرة .. ونسخ المحاضرات .. كانت تعود من الشغل لتنكب على احتياجات اخوتها . المطبخ . والغسيل . والمشاجرات . ومشاكل الطفولة .. أصبحت الأب . والأم . والمربية .. وأخيرا .. هاهى الآن عانس فى الخامسة والثلاثين .. وحيدة .. بلا أفراح تخصها ! ..

وانفض حفل الخطوبة .. استأذن العريس وعائلته .. وانصرف بعده بقية المدعوين .. ثم خالتها حميده .. ووداد مع زوجها .. وارتدى رشاد منامته وذهب الى فراشه .. ونفت سعاد ثوبها الجديد وساعدت نهاد فى خلع فستان الخطوبة .. وقبلتها ثم أطفأت النور .. وتمددت على السرير بجوارها .. وعادت الخواطر تجرف كيانها .. وسرعان ما وجدت نهاد بجوارها قد غرقت تماما فى نومها .. وامتدت يدها تداعب خصلات شعرها .. « نامى يا حلوة » .. وانحنت تقبل خدها .. ثم أمسكت يدها تتحسس الدبلة فى اصبعها .. ولثمتها ! .. ثم أسدلت « اللحاف » على وجه الصغيرة وانسابت مع ذكرياتها .. !

والدها العجوز .. المشروخ الصدر .. كم كان يعبدها .. ونزهاتها معه وهى طفلة على شاطىء النيل .. وفى حديقة الحيوان .. وحواديته لها عن سفح الهرم .. وشقاوتها وهى تجرى هناك .. وتقذف انف أبى الهول بالحصى والرمال !! أطبق على قلبها الانقباض .. مات الرجل الحنون الطيب والأسى يترع قلبه .. مات ونظرة الأسى فى عينيه .. لأنه ترك للدنيا « كتاكيتا بلا أجنحة .. » وانبرت لها من بين الذكريات المتداعية صورة أمها .. يوجهها الباش . وطرحتها البيضاء .. وتوهمتها تدنو من فراشها فى الظلام .. ومدت يدها بحركة تلقائية .. ولكنها قبضت على الفراغ .. ووجدت نفسها تهمس لها .. « قولى لأبى يا ماما سعاد قامت بالمهمة .. لكتاكيته الآن أجنحة ! .. عام واحد يا أمى ويعدو رشاد مهندسا .. ووداد يا أمى زوجة هانئة .. أم ثلاثة أطفال كالملائكة .. ونهاد فى أصبعها دبلة .. وشهادة من معهد المعلمات !! » .

وانخرطت تبكى .. كل هذا صنعته هى .. على حساب شبابها .. قاومت انوثتها .. واختلاجات الربيع فى قلبها .. كل فتاة مثلها .. كانت تحلم بقبلات حبيب .. بأحضان رجل بمناغاة طفل تنسجه من أحشائها .. الا هى مضت وحيدة .. لا هدف لها الا أن تصنع للكتاكيت أجنحة .. مضت وعلى كاهلها التبعة .. وهى تحاول أن تبدو جامدة كالصخر .. متجهمة دائما كالراهبات . حتى لا تعطى الفرصة لانسان كى يتمناها ! ..

منذ عشر سنوات تماما .. كان أحد طلبة الجامعة يقطن فى مواجهة نافذتها .. دائما كان يعاكسها .. ينتظرها عند محطة الاتوبيس فى الصباح وهى ذاهبة الى عملها .. ويترقبها وهى عائدة ..

ليبثها عبارات الوله .. والغـــرام .. ويناشدها أن تستجيب لعاطفتـــه .. وترحم سهادة .. كان يقول لها همسا بأنه لا يستطيع الحياة بدونها .. وأنه على استعداد لأن يقدم لها أى تضحية تطلبها تأكيدا لحبه .. ولكنها دائمـــا تمضى بدون أن تلتفت اليـــه .. كأنما كلماته لانسانة غير موجودة !!

وكانت تتعذب .. كلمـــاته المترعة عذوبة وحنانا .. وشعرا .. كم أذابت قلبها .. بدون أن تعطى قسمات وجهها أى تعبير يمشى بنشوة روحها لكلماته . وفرحة قلبها برؤياه .

وذات صباح اقترب منهـــا .. ثم اندفعت كلماته .. حانقة .. ثائرة .. يائسة :

« أنت .. انســـــانة بلا قلب .. بلا عاطفة .. انا حزين لأننى احببتك . لم أكن أعتقد أن توجد فتاة متعجرفة .. ومتكبرة .. ومعقدة الى هذا المدى .. حزين .. أنا . ومن أجلك أيضا .. » قال كلماته بسرعة لاهثة .. ومضى ! ..

متكبرة هى .. ومعقدة ! ..

تمنت لحظتها لو كانت تستطيع أن تجرى خلفه .. لتقول له ان كلمـــاته أجمل شىء فى حياتها .. وانها الشعاع الوحيد الذى يضىء بين ظلمات واقعها .. ولكنها لا تســـتطيع .. لا تســـتطيع لا لأنها متكبرة ومعقدة .. بل لأنهـــا غير البنات .. لأنها رجل عائلة .. وانه غريب فى الحارة ولا يعرف ظروفها .. !

وكف بعد ذلك عن التصدى لها .. ثم عاد الى بلدته فى الأجازة الصيفية .. ولم تعد تراه بعد ذلك فى الحـــارة .. اختفى من حياتها .. انها الآن مستعدة أن تدفع بقية عمرها فى سبيل أن تراه مرة واحدة .. أن تراه من بعيد .. ربما يكون الآن فى مكان ما من هذا العالم فى أحضان زوجه طيبة .. تسكب انوثتها وحنانها دفئا لشبابه .. أما هى فعانس فى الخامسة والثلاثين .. وحيدة مع وسادتها .. وحيدة . والشعر الأبيض يقتحم رأسها .. وحيدة فى النهاية .. وربما ينســـون تضحية العـــانس العجوز . وازدادت دموعها انهمارا وهى تتخيل شيخوختها .. وحيـــدة .. بلا شىء يدفىء حياتها ويعطى الطعـــم لأيامها . بدون كتاكيت تصنع لهـــا أجنحة ! ..

اعتدلت نهاد وهى نائمة على جنبها الأيسر وأعطتها ظهرها .. لأول مرة تنام الصـغيرة وصدرها ليس فى أحضـــان أختهـــا .. أكتفت الليلة بأحضـــان عريسها .. فى الأحلام ..

« نامى يا حلوة .. هانئة » ووجدت نفســها تبحث عن يد أختهـــا .. ثم تتحسس الدبلة فى أصـــبعها . وقد أشرقت من ظلام خواطرها رؤيا أشعت تثلج قلبهـــا .. ثم انسابت وانتشرت تضىء كل أحاسيســـها .. فتركت يد أختها وأســدلت الغطاء على وجهها . وأغمضت عينيها على منظر خالتهـــا حميدة .. تندفع الى الصالة بعاصفتها .. ثم تنطلق فى أرجاء البيت زغاريدها !!